القرآن الكريم وأسباب نزوله ورسمه وأطوار تحسينه

الحسين وكاگ

القرآن هو كتاب الله المنزل على محمد ﷺ، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته، وهو بالاشتراك اللفظي يطلق على مجموع القرآن وعلى كل آية من آياته، وهو رسالة الله إلى الإنسانية كافة، قال الله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيّهَا النَّاسُ إنّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[1] وقال أيضاً : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[2] وقد وصف النبي ﷺ نفسه دعوته فقال : «وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»[3]، وهو الكتاب الوافي بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية، تصديقا لقوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[4] وهو دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، وهو ملاذ الدين الأعلى،

يستند إليه الإسلام في عقائده وعباداته وأخلاقه، وحكمه وأحكامه، وقصصه ومواعظه، وعلومه ومعارفه[5].

وقد وصفه الله عز وجل بقوله : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ المُطَهَّرُونَ﴾[6]

ومن فضل الله على الناس كافة، أن أكرمهم ببعثة سيدنا محمد ﷺ، كما أن من نعم الله على نبيه ﷺ أن أكرمه برسالته، وأيده بوحي من عنده، وأنزل عليه القرآن تثبيتا لقلبه، وهداية لأمته، ولم يكن فيما أوحى الله إليه بدعا من الرسل، بل حاله كحال إخوانه الأنبياء والمرسلين فكما أوحى الله إليهم من قبل أوحى إليه من بعد، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ، وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾[7].

وقد اختار الله لوحيه إلى محمد ﷺ أسماء مخالفة لما سمي به العرب كلامهم جملة وتفصيلا، اشتهر منها اثنان : القرآن والكتاب، وفي تسميته بالقرآن، إشارة إلى ما سيلقاه من حفظ في الصدور، لأنه مصدر القراءة، وفي القراءة استذكار، كما أن في تسميته بالكتاب إيماءة إلى جمعه في السطور، لأن معنى الكتابة جمع للحروف ورسم للألفاظ، واشتهار الوحي إلى محمد ﷺ بهذين الاسمين، يدل على ما كتب له أزليا من عناية مزدوجة من حيث الحفظ في الصدور، والكتابة في السطور، الأمر الذي جعله يمتاز على غيره من الكتب السابقة التي نقلت إما بالكتابة وحدها، وإما بالحفظ وحده، بحيث وفر إليه ما كفل حفظه، وجعله في حصن حصين من تواتر في الإسناد، ونقل أمين دقيق تحقيقا لوعد الله عز وجل : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[8].

وإذا كان الذي غلب عليه استعماله من بين هذين الاسمين المشتهرين، هو لفظ القرآن، فيجدر بنا أن نستعرض ما ذكره العلماء في أصله الاشتقاقي من أقوال لنتعرف عليه ونقف بالتالي على الأسباب التي جعلته يطلق على هذا الوحي الكريم، فهو كما قال جماعة منهم، اسم علم مشتق خاص بكلام الله، وهو كما روى عن الإمام الشافعي، غير مهموز ولا مأخوذ من القراءة، وإنما هو اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل.

ومنهم من يرى غير هذا مثل الفرّاء الذي يقول : إنه مشتق من القرائن، جمع قرينة، لأن آياته يشبه بعضها بعضا ويصدق بعضها بعضا، ومثل الأشعري الذي يرى اشتقاقه من قرنت الشيء بالشيء، إذا ضممت أحدهما إلى الآخر لأن السور والآيات تقرن فيه، ويضم بعضها إلى بعض، أما القائلون بأنه مهموز، فقد اختلفوا فيما بينهم، فقال قوم منهم اللحياني، هو مصدر لقرأت مهموز بوزن الغفران، سمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر، وقال الآخرون منهم الزجاج إن لفظ القرآن وصف مهموز على وزن فعلان، مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه قرأ الماء في الحوض إذا جمعه.

وقال العلماء : إنه سمي بذلك، لأنه جمع ثمرات الكتب السابقة تصديقا لقوله عز وجل : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[9] وقوله تعالى : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[10]، وقيل لأنه جمع السور بعضها إلى بعض، وقيل لأن القارئ يظهره ويلقيه من فيه، أخذا من قول العرب : ما قرأت الناقة سلى[11] قط، يقصدون أنها لم تسقط ولم تلد ولدا.

ومن أسماء القرآن الذكر المذكور في قوله تعالى : ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾[12]، والفرقان المذكور في قوله تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى

عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[13]، والتنزيل المذكور في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[14]، والكلام المذكور في قوله تعالى : ﴿حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ﴾[15] والنور المذكور في قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾[16]، وهدى ورحمة المذكوران في قوله تعالى : ﴿هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُومِنِينَ﴾[17]، وشفاء وموعظة المذكوران في قوله تعالى : ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[18]، إلى غير ذلك من الأسماء والألقاب التي ذكر منها القاضي شيدلة[19] خمسة وخمسين، مثل العلي والمجيد والعزيز والعربي والحكمة والصراط والنبأ العظيم والوحي وغيرها مما بلغ به أبو الحسن الحرالى[20] نيفا وتسعين.

لم يكن النبي ﷺ أول رسول خاطب الناس بالوحي، وإنما هو أحد أنبياء الله الذين يحدثون الناس بحديث السماء، وينطقون عن الله، ولا ينطقون عن الهوى وحتى الوحي الذي أيد الله به من سبقه من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، هو عينه الذي أيد به محمد ﷺ لأن مصدره الله الواحد، ولأن غايته واحدة، وهو نشر مكارم الأخلاق بين الناس، قال الله تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيئِينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ، وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[21].

ولينتظم الأمر، ويتشابه مدلول الوحي بين جميع أنبياء الله ورسله كان القرآن نفسه يطلق على ما ينزل على محمد ﷺ من قبل ربه وحيا، قال الله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[22].

وهذا الوحي المتشابه بين الأنبياء والرسل، هو عينه في مدلوله اللغوي والاصطلاحي عند علماء اللغة، فقد قالوا : إن أوحى ووحي إليه بمعنى، وأوحيت إليه ووحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، وأصل الوحي عند الراغب[23]: الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكرياء : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[24]، أي أشار إليهم ولم يتكلم، والقول الجامع في معنى الوحي اللغوي، إنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه، بحيث يخفى عن غيره، ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[25]، وكذلك إلهام الخواطر بما يلقيه الله في روح الإنسان كالوحي إلى أم موسى في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي﴾[26] ومنه ضده، وهو وسوسة الشياطين، قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[27]، وقال أيضا : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾[28].

ووحي الله إلى أنبيائه، قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة، وهما الخفاء والسرعة، فهذا معنى المصدر، ويطلق على متعلقه، وهو ما وقع به الوحي، أي اسم المفعول، وهو ما أنزله الله على أنبيائه، وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم.

والله تعالى يوحي إلى ملائكته ما يامرهم به كقوله تعالى : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئِكَةِ إِنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[29] ويوحي إلى ملك الوحي ما يوحيه

الملك إلى الرسول ﷺ كقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[30]، أي أوحى الله إلى عبده جبريل، ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ ، وقال الشيخ محمد عبده في «رسالة التوحيد»[31] بعد تعريف الوحي لغة، وقد عرفوه شرعا بأنه إعلام الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه، أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، ويعرف بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس، وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش، وهذا التعريف يشمل أنواع الوحي الثلاثة الواردة في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[32].

فالوحي هنا إلقاء المعنى في القلب، والكلام من وراء حجاب، هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه، كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة، وأما الثالث فهو ما يلقيه الملك المرسل من الله إلى رسوله ﷺ فيراه متمثلا بصورة رجل أو غير متمثل، ويسمعه منه أو يعيه بقلبه.

وكان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة الشيء الذي جعل بعض المستشرقين على عادتهم يهرفون بما لا يعرفون، أو يتجاهلون ما يعرفون، لحاجة في نفس يعقوب فيزعمون أن هذه الشدة التي كانت ترى على رسول الله ﷺ، إنما هي نوبة صرعية، لكن أعراض الصرع المدروسة طبيا، والتي يعرفها كل طبيب، ما كان يشاهد عليها رسول الله ﷺ عند نزول الوحي، فبطل زعمهم ورد كيدهم في نحورهم، فقد صرح السيد «بودلى» في كتابه عن حياة الرسول المطبوع سنة 1946 بقوله : وكان رسول الله ﷺ بعد شدة الوحي، يملى القرآن

بوضوح وحضور ذهن، ويقرر الأطباء : أن المصروع لا يمكن أن يكون حاضر الذهن بعد النوبة، ومحال أن يعيش صحيح الجسم قويا طول حياته، كذلك لا يمكن أن يكون المصروع نبيا أو مشرعا حافظا لقواه العقلية والجسمية وقال أيضا : إن المعجزات ترجع إلى ألفي عام قبل المسيح وألفين بعده، وعلى ذلك فالذين يسخرون من محمد على جبل حراء، فليسخروا من موسى على جبل سينا ومن المسيح على جبل الخليل.

وليس المستشرقون وحدهم في هذا الارجاف، فقد سبقهم إليه العرب الذين أعمى الله بصائرهم، إذ ردوا مصدر الوحي إلى رؤى النائم، أو افتراءات المختلق، أو أخيلة شاعر، كما قال الله في حقهم مسفها أحلامهم : ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ، بَلِ افْتَرَاهُ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[33]، معبرين بقولهم هذا عن بلبلة أفكارهم وتضارب آرائهم، وحيرة عقولهم، التي لا تستطيع أن تهتدى إلى الربط الحقيقي بين الذات الالاهية الملقية والذات المحمدية المتلقية، وتعترف بما للوحي الإلاهي من استقلال كامل عن ذات محمد ﷺ ، بحيث لم يكن يعرف قبل ما الكتاب ولا الإيمان، كما قال الله في حقه : ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ، وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[34].

ولم يكفهم هذا الادعاء الكاذب، فزعموا مرة أخرى أن الذي يعلمه بشر: غلام ... حداد، يصنع السيوف في مكة، ولما رد الله عليهم ردا مقنعا بقوله : ﴿لِسَانُ الّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[35]، ادعوا ادعاء آخر وقالوا : ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[36]، راسمين بذلك طريق الضلال للملحدين الآخرين الذين حاولوا له تعيين معلم آخر

يكون هذه المرة في المستوى، فزعم قوم منهم أنه «بحيرا الراهب» الذي لقيه النبي ﷺ في طفولته بالشام خلال رحلته مع عمه أبي طالب، وارتأى آخرون أنه «ورقة بن نوفل» من أقارب زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها، والذي لقيه النبي ﷺ في مكة على إثر انزعاجه من نزول الوحي عليه أول مرة.

تحدى الله جميع الملحدين في افتراءاتهم وأكاذيبهم الباطلة، وسفه أحلامهم الطائشة والضالة بقوله عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ، وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[37]، تحداهم أول الأمر أن يأتوا بمثله بقوله : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[38]، فلما لم يستطيعوا تحداهم ثانيا، بأن يأتوا بعشر سور مثله بقوله : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِه﴾[39]، فلما عجزوا تحداهم ثالثا بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله بقوله : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[40]، ولما بان عجزهم وظهر غيهم، وهم من الفصاحة والبلاغة بمكان، أكد لهم ما يجب أن يعتقدوه ويتحققوه من عجزهم، وعجز غيرهم عن الإتيان بمثله بقوله : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَاتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْكَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[41].

وبهذه التحديات أعجز القرآن الكريم جميع المتطاولين، وأخرسهم بما فيه من صور حية، ومشاهد شاخصة، وألفاظ موحية، وفواصل شافية، حتى اعترف الفصحاء منهم بان ليس فيه شيء من الشعر، ولا يصدر مثل أسلوبه عن بشر، «وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمغدق، وإن أسفله لمثمر، وما هو بقول بشر»[42].

هذا ورغم ما افتراه المفترون، وأرجفه المرجفون من كفار مكة وأعداء الرسالة، فقد رسم النبي ﷺ طريقة الوحي إليه، ونزوله على قلبه فقال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليه فيفصم عنى وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول، مبينا حالتين من حالات الوحي مثبتا لنفسه الوعي الكامل لحالته قبل الوحي وبعده وأثناءه معربا عما لديه من حرص شديد على وعي ما أوحى الله في كلتا الحالتين، كان في بداية أمره خائفا من أحواله متحيرا مما يتراءى له بين الحين والحين، من مناظر غير مألوفة لديه، ولا معهودة في بيئته، حتى أنه في اللقاء الأول مع المَلَك بغَارِ حراء، اعتراه الرعب مما شاهد، ورجع إلى أهله يرجف فؤاده، حسبما روته سيدتنا عائشة رضي الله عنها إذ قالت : «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال : اِقْرَأْ قال ما أنا بقارئ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسلني فقال : اِقْرَأْ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال : ﴿اقْرَأْ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال : اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(43)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرعب، فقال لخديجة وأخبرها الخبر، «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة : «كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لَتصل الرحِمَ وتحمل الكِلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(44).

وبعدما استحم فوق الفراش، واستراح تحت الدثار مما لقيه من غط الملك المتكرر، دعاه الله إلى القيام بواجب الرسالة، وأمره بالنهوض لحمل أعباء الدعوة بقوله : ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِرْ قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[45].

وبينما الرسول ﷺ في استعداد جديد، وشوق متزايد ورغبة ملحة في استمرار اللقاءات الملكية، والاتصالات السماوية، إذا بالوحي ينقطع عنه فجأة، فحزن لذلك حزنا شديدا غدا منه كي يتردى من رؤوس الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل، فقال : «يا محمد إنك رسول الله حقا» فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه[46].

وبعد عودة الوحي من جديد، استمر ينزل على قلبه ﷺ في كل وقت وفي كل لحظة، في الليل والنهار، في الحضر والسفر في السلم والحرب، في أيام البرد وأيام الشتاء، حتى ألفه قلبه، واطمأنت إليه نفسه، وأقبل عليه بكليته، يحدوه حرص شديد على متابعة جبريل في كل ما يلقيه إليه، وكان يتلقفه منه بعجلة متناهية، مخافة أن تضيع بعض الآيات من صدره حتى أمره الله بالاطمئنان عند التلقي، والإيقان بوعده بقوله : ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[47].

أسباب نزول القرآن

القرآن الكريم قسمان، قسم نزل من الله ابتداء لمحض هداية الخلق إلى الحق، وهو كثير وظاهر، وقسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة، على

أن هذا النوع نفسه يتطلب استعراضه جهودا تلو الجهود، فقد اهتم به افذاذ من العلماء وخصصوه بالتأليف مثل السيوطي الذي ألف فيه كتابه المسمى «لباب النقول في أسباب النزول».

ويقصد بسبب النزول حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ أو سؤال وجه إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى، ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب ذلك السؤال، ويمكن أن تنشأ تلك الحادثة، إما عن خطإ ارتكب مثل السكران الذي أم الناس في صلاته، وهو في نشوته، ثم قرأ السورة بعد الفاتحة قائلا : قل يا أيها الكافرون، (أعبد) ما تعبدون، حاذفا لفظ «لا» من لا أعبد، فنزلت الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[48] أو عن رغبة من الرغبات، كموافقات عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال : «وافقت ربي في ثلاث، قلت يا رسول الله، لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى، فنزلت، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى، وقلت يا رسول الله : إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت: آية الحجاب وهي قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيءِ إِلاَّ أَنْ يُوذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إناهُ﴾[49] واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة، فقلت لهن : «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ»[50]، فنزلت الآية [51]. كما يمكن أن يكون السؤال المرفوع إلى الرسول ﷺ متصلا بأمر مضى نحو قوله سبحانه وتعالى في سورة الكهف، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[52]، أم يتصل بحاضر، نحو قوله في سورة الإسراء : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾[53] أم يتصل بمستقبل نحو قوله عز وجل : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[54]

وقد ذكر الامام البخاري في كتاب الطلاق عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر، دخل على نسائه، فيدنو من احداهن، فدخل على حفصة بنت عمر، فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت فسألت عن ذلك، فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل[55]، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت أما والله لنحتالن عليه، فقلت لسودة بنت زمعة، انه سيدنو منك، فإذا دنا منك، فقولي له : أكلت مغافير، فإنه سيقول «لا» فقولي له : ما هذه الريح التي أجد ؟ سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له : جرست نحله العرفط، وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفية ذلك، قالت تقول سودة، فو الله ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أناديه بما أمرتني به فرقا منك، فلما دنا منها، قالت له سودة : يا رسول الله : أكلت مغافير ؟ قال «لا». فما هي الريح التي أجد منك ؟ قال : سقتني حفصة شربة عسل، قالت جرست نحله العرفط، فلما دار إلي، قلت ذلك فلما دار إلى صفية، قالت مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة، قالت يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال : لا حاجة لي فيه، قالت تقول سودة، والله لقد حرمناه، قلت لها اسكتي. وفي رواية عن عائشة : ان زينب بنت جحش هي التي سقته العسل، وان عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه، فحلف أن لا يعود له.

وعلى كل حال فهما سبب لنزول هذه الآية التي يقول فيها الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ، واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلِيكُمْ وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾[56].

وللغيرة في عالم النساء باب مفتوح ومسلوك، ولعلها الداعية لهن إلى المنافسة والمواكبة لتطورات الحياة إلى حد أن يفرضن وجودهن ويغلبن الرجال،

كما روى عن عمر بن الخطاب نفسه، حين قال لرسول الله ﷺ وهو يحاول أن يزيل موجدته عليهن : «ولو رأيتنا يا رسول الله، وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة، وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت علي امرأتي يوما، فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني، فقالت ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت : قد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت، أفتامن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت»[57]، فتبسم رسول الله ﷺ.

ومنه قضية خولة بنت ثعلبة التي أعلن أمامها زوجها أوس بن الصامت الظهار بعدما كبرت وخشيت أن يكون طلاقا، كما عليه العادة لدى الجاهلية فاشتكت إلى رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله، أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطنى، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني. فقال لها رسول الله ﷺ : اصبري يا خولة، فإن ابن عمك شيخ كبير، واتقي الله فيه، ولكنها ترغب في شيء تعتمد عليه لاستيناف حياة أخرى مع زوجها الناطق بالظهار، فلما لم تجده قالت : إني إذن أشكو إلى الله. قالت : فما برحت حتى نزل في قرآن، فتغشى رسول الله ما كان يتغشاه، ثم سرى عنه فقال لي : يا خولة : قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا، ثم قرأ : ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ، مَّا هُنَ أُمَّهَاتِهِمُ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمُ إلاَّ اللاَّئي وَلَدْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ، وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا، ذَالِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ، وَاللهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً، ذَلِكَ لِتُومِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(58).

ثم قالت : قال لها رسول الله ﷺ : مُرِيه فليعتق رقبة، قالت : فقلت يا رسول الله : ما عنده ما يعتق، قال : فليصم شهرين متتابعين، قالت : فقلت يا رسول الله، والله إنه لشيخ كبير، ما به من صيام، قال فليطعم ستين مسكينا وسقا من ثمر، قالت : فقلت والله يا رسول الله ماذاك عنده، قالت : فقال رسول الله ﷺ، فإنا سنعينه بفرق من ثمر، قالت : فقلت يا رسول الله، وأنا سأعينه بفرق آخر، قال : قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرا، قالت : ففعلت(59).

ومنه قصة الإفك التي أشار الله إليها بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ، لاَ تَحْسِبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(60) وقد كان الناشر لسوء لعنة الإفك عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فهو الذي تولى كبره، واستحق من الله الناصر للمظلومين العذاب العظيم، لأن النبي ﷺ قال : «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المومنات»(61).

وروى عنه أنه قال : قذف المحصنة، يهدم عمل سنة، وخاصة إذا كانت هذه المحصنة زوج الرسول ﷺ التي عانت الشيء الكثير من أرجاف المرجفين

الدائم اجترارِه مدة شهر كامل حتى طهر الله منه الساحة بالآيات العشر التي برأت عائشة رضي الله عنها من فوق سبع سماوات مما قالوا، وحببت لأولي الفضل والسعة أن يواصلوا إحسانهم لذوي أرحامهم رغم ذلك، ليزيد الله من أنواره ورحماته على آل أبي بكر الصديق، جزاء لهم على ما عملوا.

ولأسباب النزول فوائد منها، معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، ومنها الاستعانة على فهم الآية، ودفع الإشكال عنها، ويقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب، يورث العلم بالمسبب.

ويتجلى ذلك في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وجْهُ اللهِ﴾(62) فهذا اللفظ الكريم، يدل بظاهره على أن للانسان أن يصلي إلى أية جهة شاء، ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر البيت الحرام، لا في سفر ولا في حضر لكن إذا علم أن هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة، أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه، تبين له أن الظاهر غير مقصود، وإنما المقصود التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة، أو على المجتهد في القبلة إذا صلى وتبين خطؤه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت.

كما يتجلى ذلك فيما روى في الصحيح أن مروان بن الحكم، أشكل عليه معنى قوله تعالى : ﴿لاَيَحْسبَنَّ الّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ العَذَابِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(63) وقال : لئن كان كل امرىء فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبن أجمعون، وبقي

في إشكاله هذا حتى يبين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب، حين سألهم النبي ﷺ عن شيىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك الله، وهناك زال الإشكال عنه، وفهم مراد الله من كلامه.

ومن ذلك أيضا من قال بإباحة شرب الخمر، واحتج بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[64]

هذا ولا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح، وقد روى الواحدي عن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «اتقوا الحديث إلا ما علمتم، فإنه من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»، ومن هنا فلا يحل القول في أسباب النزول، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها، وعلى هذا فإن روي سبب النزول عن صحابي، فهو مقبول، وإن لم يعزز برواية أخرى تقويه، لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه، حكمه حكم المرفوع إلى النبي ﷺ. وإن روي بحديث مرسل وانتهى إلى التابعي، فحكمه أن لا يقبل إلا إذا صح بمرسل آخر، وكان الراوي من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم.

هذا وقد استطاعت المصاحف العثمانية أن تحمل المسلمين بسليقتهم على الوحدة في تلاوته، رغم أنها كانت منذ البداية خالية من النقط والشكل وغيرهما بضعا وأربعين سنة [65]، ولما اختلط العرب بغيرهم سنة 65 هجرية، فبدأت العجمة توقع الناس من اللبس في قراءة بعض كلماته وحروفه، أسرع بعض المشرفين على شؤون المسلمين في خلافة عبد الملك بن مروان، فحاولوا

مخافة أن يتطرق التحريف إلى النص القرآني، أن يحدثوا ما من شأنه أن يساعد الناس على القراءة الصحيحة، وأن يزيلوا في الرسم القرآني بعض اللحن الذي أشار إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه، لما رفع إليه المصحف بقوله : «أجد فيه ملاحن سيصلحها العرب»[66]، وبنسخه للمصاحف رضي الله عنه وضع الأساس لما سمي فيما بعد بعلم الرسم القرآني، وواكبه علي رضي الله عنه بتوجيهاته لأبي الأَسْوَد الدؤلي بوضع بعض القواعد للمحافظة على سلامة اللغة العربية [67].

وهكذا شرع كل من عبد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف الثقفي في إدخال تحسينات على الرسم القرآني في عدد من الكلمات والمواضع، فكانت أوضح قراءة وأيسر على الفهم، ولا تتعلق كلها إلا بطريقة الرسم التي كان طبيعيا أن ينالها التغيير على امتداد العصور، أما النص القرآني، فهو لا يتغير فيه شيء لأنه محفوظ في الصدور، ومسجل في السطور، ومأخوذ بالتلقي والمشافهة بطريقة التواثر التي هي طريقة واضحة من طرق العلم.

على أن تحسينات الرسم القرآني لم تتم دفعة واحدة، وإنما بقيت تتطور عبر الأجيال حتى بلغت ذروتها في نهاية القرن الثالث الهجري، ورغم اختلاف العلماء في أول من شارك في هذا التحسيس، فإن الأسماء التي ترددت في الموضوع، هي : أبو الأسود الدؤلي، فقد عرف عنه ما بذل من جهود أولية في وضع مسائل في اللغة العربية، وفي تحسين الرسم القرآني، وقد أظهر غيرة شديدة على لغة القرآن، حينما سمع قارئا يجر اللام من (رَسُولِه) في قوله تعالى : ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[68]، فأفزعه هذا اللحن قائلا : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم نفد في الحال الوعد الذي وعد به والي البصرة، زياد، حينما سأله أن يجعل للناس علامات تقيهم شر اللحن في كتاب الله.

وبعد تفكير وتقدير، انتهى به الأمر إلى وضع تلك العلامات، فكانت العلامة التي وضعها للفتحة نقطة فوق الحرف والعلامة التي وضعها للكسرة نقطة أسفله، والعلامة التي وضعها للضمة نقطة بين أجزاء الحرف، والعلامة التي وضعها للسكون نقطتين.

وإذا كان بعض العلماء يعتبر أبا الأسود الدؤلي الحلقة الأولى في سلسلة نقط القرآن وتحسين رسمه، فإن هناك منهم من يرى غير هذا، ويعتبر يحيى بن يعمر أول من نقط المصاحف، مستدلا بما ذكره ابن خلكان، من أنه كان لابن سيرين مصحف نقطه يحيى ابن يعمر، وإن كان هذا الرأي مما يصعب التسليم به تاريخيا إذا عرفنا أن وفاة بن سيرين واقعة سنة 110هـ.

أما عمل نصر بن عاصم في نقط القرآن وتحسين رسمه، فهو امتداد لأستاذيه السابقين : أبي الأسود الدؤلي، وابن يعمر باعتباره آخذا عنهما، فقد ساهم بدوره في حركة نقل القرآن حينما طلب الحجاج ابن يوسف من كُتّابه أن يحسنوا الرسم القرآني، ويضعوا علامات على الحروف المتشابهة [69].

وإذا كنا لا نميل إلى الرأي الذي يعتبر نصر بن عاصم أول من نقط القرآن للاعتبار المذكور آنفا، فإنه على كل حال من المساهمين الأولين في تحسين رسمه، وتيسير قراءة القرآن على الناس ضمن الأسماء التي تتوارد على الألسنة في هذا الميدان، أمثال أبي الأسود الدؤلي ويحيى بن يعمر[70] ونصر بن عاصم[71] والحجاج بن يوسف الثقفي نفسه بالخصوص[72]، ورغم اختلاف آراء الناس فيه، فله عمل عظيم في الإشراف على نقط القرآن والحرص عليه.

وبعد هذه الحركة الأولى أقبل الناس على تحسين الرسم القرآني، وأظهروا عناية خاصة في سبيل تيسيره وتجويده، فالأعمال التي أنجزت في هذا الميدان من طرف الخليل بن أحمد، وأبي حاتم السجستاني، جعلت رسم المصاحف يكاد يبلغ نهايته في الجودة والكمال، وقد نهج الناس نهج من سبقهم، فبدأوا يتنافسون ويبتكرون لتحسين وتجويد الرسم القرآني، وهو أول من صنف النقط ورسمه، وذكر علله، ووضع الهمز والتشديد والروم والإشمام [73].

وقد أحسن عبد الملك بن مروان صنعا حينما رأى بثاقب فكره أن يميز ذوات الحروف من بعضها، وأن يحقق ذلك بالإعجام والنقط، ثم استبدل بالشكل الأول الذي هو النقط، هذا الشكل الذي نعرفه اليوم، والمتمثل في علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون، فلو لم يفعل ذلك لما ميز بين الحالتين التمييز المطلوب، ولتشابه الأمر على القراء المحدثين.

وقد أوقف حركة الناس نحو تحسين الرسم منذ الصدر الأول، ما كانوا يرونه من كراهة نقط المصحف وشكله، مخافة أن يؤدي ذلك إلى التغيير فيه، فقد روي عن عبد الله بن مسعود قوله : «جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء» كما روي عن ابن سيرين أيضا أنه كره النقط والفواتح والخواتم وغيرها، وهذا حال العرب في عهدهم الأول، حيث كانت سلامة لغتهم وصفاء سليقتهم وذلاقة ألسنتهم تغنيهم عن هذه التحسينات، أما وقد دخلت في الإسلام أمم جديدة، فقد تبدل الحال غير الحال، وأصبح شكل المصحف وإعجامه أمرا ضروريا للمحافظة على أداء القرآن وحمايته من كل تغيير وتحريف، لأن العلة كما يقول الأصوليون تدور مع المعلول وجودا وعدما، وإلى هذا ذهب الإمام النووي في كتابه التبيان حيث قال : قال العلماء : ويستحب نقط المصحف وشكله فإنه

صيانة من اللحن فيه وتصفية، وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط، فإنما كرهاه في ذلك الزمان، خوفا من التغيير فيه، وقد أمن ذلك لكونه محدثا، فإنه من المحدثات الحسنة فلا تمنع منه كنظائره، مثل تصنيف العلم، وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك والله أعلم[74] وهكذا تحول القول في النقط والإعجام من الكراهة إلى الاستحباب، فأصبح تبعا لتغير الزمان، من المحدثات الحسنة، مثلهما في ذلك مثل البدعة المحدثة في كتاب العناوين في رأس كل سورة، ووضع رموز فاصلة عند رءوس الآي، وتقسيم القرآن إلى أجزاء والأجزاء إلى أحزاب، والأحزاب إلى أرباع مستدلين على ذلك بالروايات المأثورة، وقد أخرج أحمد في مسنده وأبو داود وابن ماجة عن أوس بن حديفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته : كيف تُحزِّبون القرآن، قالوا : ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من «ق» حتى نختم [75].

وبعد هذا أقبل الناس على تجويد المصاحف وتحسين كتابتها فاقتصروا أولا على الخط الكوفي، ثم حل محله في أوائل القرن الخامس الهجري خط النسخ الجميل، الذي فيه جميع النقط والحركات التي تستعمل في الكتابة لحد الآن، وقد أراد الله أن يعم كتابه الآفاق، فكانت الطباعة التي مرت بدورها بأطوار التجويد والتحسين، وقد طبع القرآن من أول وهلة في مدينة البندقية سنة 1530م إلا أن السلطات الكنسية منعته من الظهور، ثم قام هنكلمان بطبعه في مدينة هانبورغ سنة 1694م وبعده قام مراكى بطبعه في بادو سنة 1698م.

وهذه الطبعات الثلاث غير ذات أثر يذكر في العالم الإسلامي، وأول طبعة إسلامية ظهرت للقرآن هي التي قام بها بعض الغيورين في سانت بترسبورغ بروسيا

سنة 1787م ثم تلتها طبعة أخرى في قازان، ثم بعدها ظهرت طبعتان حجريتان في إيران، إحداهما في طهران سنة 1828م والأخرى في تبريز سنة 1833م.

وبعدما ظهرت في الهند طبعات للقرآن، جاء دور الأستانة التي اهتمت بالأمر أيضا ابتداء من سنة 1877هـ.

وأخيرا ظهرت في القاهرة طبعة أنيقة لكتاب الله سنة 1923م وكانت تحت إشراف مشيخة الأزهر، وبإقرار اللجنة المعنية من قبل الملك فؤاد الأول رحمه الله.

خاتمة

وهكذا يبدو من كل التحسينات التي استفاد منها الحرف العربي أنها انعكست إيجابا على تطوير العربية التي كانت إلى عهد قريب مجرد لغة قبائل عربية تعبر عن أحوال أهلها وحاجاتهم.

ولما اختارها الله لغة القرآن الكريم ازداد شأنها ولكنها لم تكن من النضج والاكتمال واستنباط القواعد في المستوى المطلوب والمتناسب مع الوظيفة الجديدة لهذه اللغة، فاهتم بها علماء الأمة الذين دخلوا في الإسلام وخدموها وأنشأوا لها علوم النحو واللغة والمنطق والفقه والحديث والتفسير والرياضيات والعلوم الفلكية وغيرها، فاستوعبت بسرعة ثقافات الفرس والروم واليونان وتحققت لها إمكانات عظيمة من المفردات والتراكيب والمفاهيم المختلفة زاد في غناها وتطويرها.

وظلت مسيرة الحرف العربي مستمرة في سيادتها وتطوريتها طيلة الفترات التي اقتحم فيها هذا الحرف مجالات العلوم الجديدة في زمنها كالطب والرياضيات والعلوم الطبيعية وغيرها.

وإن تجربة الحرف العربي مع تلك العلوم أسفرت عن حقيقة كون اللغات عموما إنما تستمد قوتها من خصائص الإنسان الذي يوظفها في المجالات العلمية التي يتطور فيها الإبداع والاكتشافات والنظريات بسرعة، وأن توقف الإنسان عن التعامل مع تلك المجالات مما يتضرر به الحرف واللغة.

وتأسيساً على ذلك، فإن إعادة نهوض الحرف العربي واستئنافه مسيرته التطورية رهين باستفادته من تجربة مختلف اللغات التي تنعت بالمتطورة.

فإذا كانت اللغة الإنجليزية اليوم وغيرها في المقام الأول من حيث تنافسيتها وإبداعيتها في مجالات الصناعات والأجهزة وابتكار الوسائل، فإن ذلك يعود أساسا إلى استقطابها مختلف العقول من مختلف الثقافات واللغات والأجناس لتبتكر وتبدع فيأخذ الوليد الجديد اسمه بالصيغة الانجليزية حسب قواعدها وبأوزانها فتغتني من جهتين : جهة إضافة مفردات ومفاهيم معجمية جديدة، تحتم على اللغة أن تجدد معاجمها على رأس كل عشر سنوات بفعل الكم الهائل من المفردات والتراكيب التي تبتكرها هيئات العلماء والمفكرين لصالح تلك اللغة ؛ ومن جهة ثانية تربح هذه اللغة الصناعات والأدوات والوسائل المبتكرة باسم اللغة الإنجليزية مثلا وتسويقها في الأسواق.

ويقتضي الأمر أن يستفيد الحرف العربي من تجربة الحرف الإنجليزي الذي سخرت له عقول ثقافات وقوميات مختلفة من خلال رصد نسب مالية في ميزانية الدول العربية لصالح تطوير العربية والحرف العربي.

وإذا استوعبنا هذه القضية زالت الدعوى التي تتهم الحرف العربي بالجمود والتخلف وانكشف أمامها سر تطور اللغات، وأن ما يصاب به الحرف العربي من الجمود ليس صفة ذاتية فيه وإنما هو ظرفي تعلق بالجمود الذي أصاب الإنسان الموظف والمستعمل للحرف العربي المذكور.

وقد حاولت أكاديمية المملكة المغربية بمكتبها وأعضاء لجنتيها في القيم والتراث، تحريك هذا الإنسان الموظف والمستعمل للحرف العربي والمتوقف في طموحه وابتكاره ومسيرة آبائه الأولين، لينتبه ويعود إلى رشده ويقلع عن انكماشه الضار اليوم بعامة العرب والمسلمين.

وهي لحد الآن جادة في مسيرتها، وقائمة بواجبها بصبر وأناة، بواسطة لجنتيها المذكورتين، واللتين واصلتا جهادهما لتحسين الحرف العربي، فعقدتا لذلك ندوتين اثنتين في كل من الرباط شهر جمادى الأولى 1414 هـ الموافق شهر نونبر 1993م، وفي فاس شهر ربيع الثاني 1426 هـ الموافق 25–26 ماي 2005م، مطبقتين في ذلك أحد البنود الواردة في الظهير المؤسس للأكاديمية بتاريخ 24 شوال 1397 هـ الموافق 08 أكتوبر 1977م، والداعي إلى حسن استعمال اللغة العربية بتعاون مع الهيئات المختصة في الميدان.

وبما أن القرآن الكريم هو أول كتاب إلاهي، دعا الإنسان دعوة ملحة إلى مائدة العلم، وأغراه بالجلوس على بساطها، وتناول غذائها الكامل منها حسبما ذكره أحد أعضاء الأكاديمية الشيخ محمد المكي الناصري رحمه الله في عرضه القيم والمنشور في العدد الثالث من مجلة الأكاديمية التي تعمل على حسن استعمال اللغة العربية، وإخراجها من محنتها[76] المسيطرة على الأجواء في الداخل والخارج.

وإذا كانت جهة سوس ماسة درعة هي المحتضنة لعدة مدارس وزوايا باذلة جهودا مشكورة لحفظ القرآن الكريم وخدمة اللغة العربية من القرن الخامس الهجري إلى الآن، فإن حبنا لهما ليغرينا ويهيب بالأكاديمية المباركة في تنقلاتها، والناجحة في ندواتها، أن تتفضل وتفكر تفكيراتها النطاسية لعقد ندوة ثالثة فيها، ليصدر عنها في النهاية مجمع عصري أول للتعليم الابتدائي في عهد مولانا محمد السادس نصره الله.

الهوامش

1) سورة الأعراف، 158.

2) سورة الفرقان، 1.

3) «صحيح البخاري»، أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي.

4) سورة الشورى، 13.

5) «الاتقان» للسيوطي ج 1، ص 51.

6) سورة الواقعة، 77-79.

7) سورة الأحقاف، 9.

8) سورة الحجر، 9.

9) سورة النحل، 89.

10) سورة الأنعام، 38.

11) من سلى يسلى سلى، سلت الشاة : انقطع سلاها، فهي سلياء. المنجد

12) الأنبيّاء، 50.

13) الفرقان، 1.

14) الشعراء، 192.

15) التوبة، 6.

16) النساء، 174.

17) النمل، 77.

18) يونس، 57.

19) شيدلة : هو الفقيه الشافي المشهور، مؤلف البرهان في مشكلات القرآن، توفي سنة 494 هـ انظر وفياة الأعيان ص 318.

20) الحرالي : منسوب إلى حرالة، قرية من اعمال مرسيه واسمه علي بن أحمد بن الحسن النحيبي، توفي سنة 647 هـ

21) سورة النساء، 163.

22) سورة النجم، 1-4.

23) مفردات الراغب الاصبهاني، الصراط : الطريق : يونانية.

24) سورة مريم 11.

25) سورة النحل، 68.

26) سورة القصص، 7.

27) سورة الأنعام، 121.

28) سورة الأنعام، 112.

29) سورة الانفال، 12.

30) سورة النجم، 10.

31) «رسالة التوحيد»، ص 108.

32) سورة الشورى، 51.

33) سورة الأنبياء، 5.

34) سورة الشورى، 52.

35) سورة النحل، 103.

36) سورة الفرقان، 5.

37) سورة يونس، 37.

38) سورة الطور، 34.

39) سورة هود، 13.

40) سورة البقرة، 23. — عجزوا بالكسر أي لم يقدروا.

41) سورة الإسراء، 88.

42) «مختصر الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي ، ص 151.

43) سورة العلق، 1.

44) صحيح البخاري بدء الوحي.

45) سورة المدّثر، 1-4.

46) «البخاري»، ج 9، ص ... كتاب التفسير؛ أوفى : أشرف، وتقر نفسه : بردت سرورا وجف دمعها.

47) سورة القيامة، 16-19.

48) سورة النساء، 43.

49) سورة الأحزاب، 53.

50) سورة التحريم، 5 ؛ الغيرة الاسم.

51) أخرجه البخاري وغيره.

52) سورة الكهف، 73.

53) سورة الإسراء، 85.

54) سورة النازعات، 42.

55) عكة بضم العين رقيق للسمن أصغر من القربة المنجد المعلوف ص 14.

56) سورة التحريم، «مختصر تفسير ابن كثير» الصابوني، ص 66.

57) «مختصر تفسير ابن كثير»، ج 3، ص 521.

58) سورة المجادلة، 1-4.

59) المجادلة، «مختصر تفسير ابن كثير»، للصابوني، ص 58.

60) سورة النور، 11.

61) أخرجه أحمد وأبو داود.

62) سورة البقرة، 115.

63) سورة آل عمران، 188.

64) سورة المائدة / آية 93؛ وهي تبين أن من شرب الخمر من المؤمنين ومات قبل تحريمها فلا إثم عليه.

65) «وفيات الأعيان»، ج 1، ص 125.

66) ابن ابي داود، «كتاب المصاحف»، ص 32.

67) «أنباء الرواة»، ج 1، ص 13.

68) سورة التوبة، 3.

69) «الإتقان» السيوطي، ج 2، ص 170.

70) ولد يحيى بن يعمر في البصرة وعاش في العراق ثم هجر إلى خراسان، توفي سنة 129هـ..

71) نصر بن عاصم أحد قراء البصرة أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ويحي بن يعمر، توفي سنة 89.

72) صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، ص 94 — البرهان 1، ص 251.

73) «كتاب النقط» لأبي عمرو الداني، ص 130.

74) صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، ص 98.

75) الزرقاني، «مناهل العرفان»، ج 1، ص 402.

76) «محنة اللغة العربية»، إبراهيم علي أبو الخشب، ص 51.